كتاب الشهر

قاموس يستعيد الأعلام وشخصيات وجداننا الوطني

إسكندر نجار... لبنان إن حكى!

على مدى اكثر من 500 صفحة، ينزهنا الكاتب اسكندر نجار في تاريخ لبنان القديم والحديث. ادباؤه وموسيقيوه وشعراؤه كلهم حاضرون هنا، كما امكنته ومدنه الايقونية ومعالمه التاريخية وقراه الوادعة. قاموس شامل انجز بجرعة عالية من الحنين والحب، والاسف على ما آلة اليه الاوضاع

"القاموس العاطفي" هو عنوان سلسلة تصدر عن "منشورات بلون" الفرنسية منذ عام 2000، حيث يوكل الى كل كاتب مهمة الحديث عن بلده، وتعريفنا اليه والى تاريخه ومعالمه الحضارية والثقافية من وجهة نظر شخصية، اي وفق ذائقة المؤلف الخاصة، لكنه يتخذ شكل القاموس لانه منظم وفق ترتيب ابجدي.

قبل اعوام، لجأت الدار الى الكاتب اللبناني الفرنكوفوني اسكندر نجار من اجل انجاز قاموس خاص بلبنان. بعد عامين من الجهد الدؤوب، صدر الكتاب بالفرنسية عام 2017 تحت عنوان "القاموس العاطفي للبنان". بعد لغة موليير، انتقل اخيرا الى لغة الضاد عن "دار الساقي" (ترجمة ماريا الدويهي وجان هاشم ـ مراجعة جبور الدويهي) لـ"يطاول القارئ اللبناني المقيم فيحب وطنه، واللبناني المنتشر في العالم فيحن اليه، والقارئ غير اللبناني انى يكن فيتعرف الى اعلام ومعالم وعلامات تنقي نظرته الى لبنان" وفق ما كتب الشاعر هنري زغيب.

على مدى اكثر من 500 صفحة، ينزهنا اسكندر نجار في تاريخ لبنان القديم والحديث، مستدعيا ادباءه وشعراءه الى وليمته، وطبعا قراه ومدنه وعاداتها وتقاليدها، وممارساتها وطقوسها الاجتماعية والدينية، وايضا النكات والطرائف المتداولة عبر الاجيال، الى جانب مشكلات المجتمع اللبناني وآفاته المزمنة. قاموس نجح في التوفيق بين النخبوية والشعبية، بين الجد والفكاهة، واعطى نظرة شاملة عن لبنان بحميمية كاتب يرتبط بعلاقة اشكالية بوطنه. يكن حبا عميقا له، لكنه ايضا يضمر احساسا بالخذلان لما آلت اليه الاوضاع.

اختيار محتوى القاموس جاء عفويا. انصاع فيه نجار الى احاسيسه وقلبه، والمعالم والاحداث التي طبعت مكانها في وجدانه. كل شيء كان عفويا باستثناء امر واحد: لقد استبعد نجار قصدا الحديث عن سياسيين في هذا القاموس، من باب "ان السياسة في لبنان تفرق، بينما مشروعي يهدف الى جمع اللبنانيين على اشياء مشتركة"، متهما بعض السياسيين بأنهم السبب في خراب الدولة.

يبدأ الكتاب بمقدمة تعريفية كتبها نجار لتذكير القارئ "بأسس لبنان واهمية هذا الوطن (...) الذي يبقى احد البلدان الاكثر جاذبية بحكم اهمية مواقعه الاثرية (بيبلوس، بعلبك، صور...)، وتاريخه الغني (تعاقبت على ارضه 17 حضارة)، ومناخه المعتدل، والفسيفساء الدينية التي يتألف منها ـ "لبنان الرسالة" الذي حياه البابا حنا بولس الثاني ـ وكوزموبوليته بحيث لا يشعر الزائر اليه ابدا بانه غريب، وحسن ضيافته المشهود لها، وتعلقه بالحرية، وطريقة العيش اللبنانية (الانتماء الى العائلة، البراعة في تدبر الامور، وشيء من اللامبالاة)، وهذه القدرة التي يتمتع بها اللبنانيون في تخطي الصعاب والنهوض مجددا. اضف الى ذلك ان لبنان بلد عربي، منفتح على العالم، اشبه بصلة وصل فعلية بين الشرق والغرب، توفق نوعا ما بين هاتين الحضارتين التي يصعب التوفيق بينهما...".

يذكر نجار في المقدمة ان هذا القاموس ليس موسوعة شاملة، بل يعكس رؤيته للموضوع المطروح من منظار ذاتي، اذ "تركت حبي للبنان يقودني بحرية مطلقة"، واصفا القاموس الذي انجزه بانه "مزاجي وفوضوي". مع ذلك، فالكتاب ممتع فعلا، للقارئ العادي كما للمتبحر في الآداب والفنون والحضارات التي تعاقبت على لبنان، اذ ينعش ذاكرته بمواضيع وتيمات سقطت في النسيان. المضحك انه بعد افتتاح نجار قاموسه بكلمة "ابجدية"، حيث توقف طويلا عند الفينيقيين الذين "اكتشفوا الابجدية التي انتشرت في العالم القديم من طريق اليونان"، يصل الى "ابوالعبد"! يستعيد النكات التي تناولت ذلك البيروتي الفظ الذي "يشغل المقاهي ويعيش كل انواع المغامرات الخيالية".

يسرد انه في الستينات، جسّد الممثل خليل شحادة هذه الشخصية على خشبة المسرح، كما احمد خليفة بطل مسلسل تلفزيوني عرض على "تلفزيون لبنان".

ما يقرب ابوالعبد من الياس ابوشبكة ليس الاهتمام المشترك طبعا، بل التجاور الابجدي لاسميهما. يحكي نجار عن الياس ابو شبكة (مواليد زوق مكايل 1903 ـ 1947) الذي توفي وهو في الثالثة والاربعين فقط. يبدي اعجابه الكبير بالشاعر الرومنطيقي، "المنشد المعذب بالمرأة والحب". يستشهد بالكاتبة اللبنانية فينوس خوري غاتا التي كتبت ان "بودلير وابو شبكة حولا المآسي البشرية الى جمال". يواصل مروره على الابجدية اللبنانية، متوقفا عند الادب والفن والموسيقى اللبنانية ورموزها وتطورها منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم، كما عند الاذاعات، مستعيدا دورها في الحرب الاهلية.

ينبش من الذاكرة اسم شريف الاخوي الذي اشتهر في الاذاعة اللبنانية، اذ "برع في توجيه المستمعين بتحديده المناطق الخطيرة التي يجب تجنبها خلال الحرب". ويروي انه في احد الايام، دعا الاخوي على الهواء مباشرة اللبنانيين من طرفي بيروت الشرقية والغربية الى التلاقي عند معبر المتحف للتظاهر ضد الحرب. لبى المئات النداء، الا ان القناصين كانوا لهم بالمرصاد، ما ادى الى استشهاد عدد من الناس. بعد هذه الحادثة، اصيب الاخوي بالاحباط وترك عمله في الاذاعة، ولم يعده اليه الا بعدما تدخل رئيس الجمهورية شخصيا، كي يستمر الاخوي في مهمته "مرشدا رسميا للجمهور".

يواصل نجار نزهته، فيستعيد "اليسار" التي تشكل نموذجا مضيئا للمرأة في التاريخ اللبناني. كانت المرأة في تلك الحقبة "شجاعة ومتحررة في حين ان العالم العربي يحرمها اليوم حقوقها ويعزلها عن الساحة السياسية" وفق ما يورد.

يصل الى شوارع بيروت التي سميت باسماء تركت بصمتها في تاريخنا الحديث. يتحدث مثلا عن الاوزاعي الذي هو اسم شارع ومسجد وكلية جامعية في لبنان. اخذ الشارع اسمه من الامام عبد الرحمن بن عمر الاوزاعي، الذي ولد في بعلبك عام 707 وتوفي في بيروت عام 774. امام استثنائي عاش طفولته في العوز والفقر بين البقاع وبيروت ودمشق. تعلم على يد ائمة معروفين، وتميز بذكائه وسعة اطلاعه وزهده بامور الدنيا. وسرعان ما استحال احد اهم علماء عصره، بعد حله سبعين الف قضية، ومساهماته الشاسعة في مجال الفقه. يحكى انه هب لنجدة مسيحيي جبل لبنان حين تعرضوا لاضطهاد العباسيين.

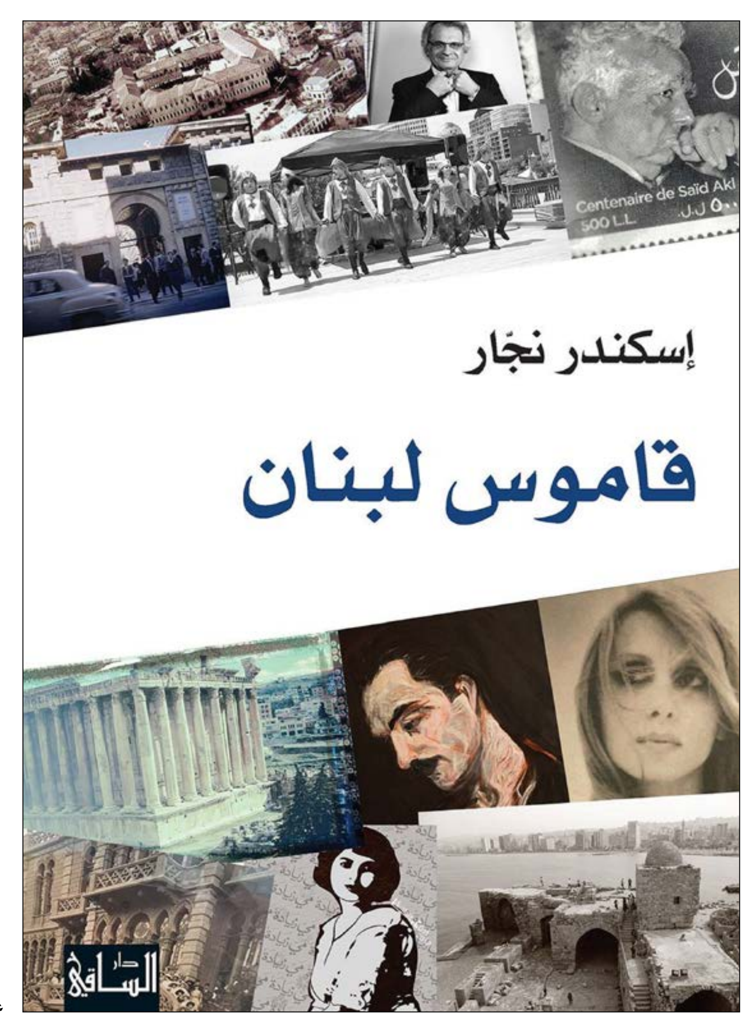
من الاوزاعي الى البترون تلك المدينة الساحلية التي تسحر نجار بتاريخها الضارب في القدم. يذكر انها كانت مرفأ فينيقيا، ذُكر اسمها للمرة الاولى في رسائل تل العمارنة العائدة الى النصف الاول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد. رسائل بعثها حكام المدن الكنعانية الى فراعنة مصر لالتماس المساعدة في معركتهم ضد الاموريين. طبقات من التاريخ تربض عليه هذه المدينة التي اكتشفت فيها نواويس في مقبرة فينيقية جنوب المدينة، و"استخرجت من اعماق البحار جرار وخواب كان الفينيقيون يستخدمونها لنقل الحبوب والطحين والزيت".

من بيبلوس الى البقاع وبعلبك مرورا ببشري مسقط راس جبران خليل جبران، تتوالى الامكنة في "قاموس" نجار لتذكرنا بالعمق التاريخي لهذا الوطن الذي مرت عليه حضارات كثيرة، فاكسبته غنى وتنوعا وتعددا قل نظيره فعلا. لامكنة لبنان زاوية خاصة في وجدانه. هذا ما اكده حين كشف ان الجزء الاثير الى قلبه في قاموسه هو الجزء المتعلق ببلدات قرى ومدن لبنان. من كسروان الى بيروت، تراه مسحورا بهذه الامكنة المسكونة بالتاريخ. الحنين مفردة حاضرة بقوة ايضا. حنين غامر الى الامكنة التي جرفتها ورشة الاعمار. يحن نجار الى ترامواي بيروت "الطريف بلونيه الاحمر والابيض". يتحسر انه لم يتسن له استقلال الترامواي، لكنه كان يسحر بخطوطه الحديدية التي تمر في شوارع ساحة البرج قبل زوالها غداة الحرب.

يورد ان الكاتب اللبناني الراحل توفيق يوسف عواد تعرف الى زوجته على متن احدى هذه العربات، فيما تمتع الصحافيون بامتياز الركوب المجاني في الدرجة الاولى. يستدعي اشباح ساحة البرج في زمن العز، يوم كانت تغلي بالجموع الغفيرة ولا يعرف النوم طريقا اليها. كان ذلك قبل الحرب، يوم كانت ساحة البرج كوسموبوليتية شعبية تزنرها صالات السينما كـ "الروكسي"، و"الاوبرا" و"الريو" و"الكريستال" و"شهرزاد" و"الريفولي"، والفنادق والكباريهات والمقاهي (مقهى ابوعفيف، ولا روندا، ولابوست، قهوة القزاز...) والمكاتب.

يستشهد نجار بالكاتب والناقد والشاعر الفرنسي ماكس بول فوشيه (1913 ـ 1980) الذي وصف الساحة قائلا: "في زمن مضى، كانت ساحة البرج الاشهر في المدينة، كما عرفتها معرضا للخمول. وسط الرصيف، يمسح الاحذية بكل راحة بال. ومن حوانيت الشرب الكثيرة، يسمع احيانا لحن ناي متلو كافعى. وكان هناك عربات خيل. اما اليوم، فالسيارات الاميركية او الالمانية الفارهة تصطف بجانب الارصفة، وحبل السير لا ينقطع، وبسطات بيع اشرطة الموسيقى تصدح بالعربية وبكل اللغات...".

يمكن القول ان مهمة ضخمة القيت على نجار الذي نراه يتقمص ادوارا عدة: الصحافي، والاديب، والمؤرخ، والقانوني، والروائي من اجل تقديم هذا القاموس. كتاب تفرد بلغة انيقة واسلوب سردي سلس، ينساب انسيابا حتى لتكاد تنتهي من صفحاته التي تربو على 500، في جلسة قراءة واحدة.



غلاف الكتاب.